

1

في سالف العهد عاش شيخ غريب الأطوار
في جزيرة نائية جرداء.

لم يسىء الى أحد قط في حياته
سواء في البر أم في البحر
ومع ذلك كانت عيناه تتقدان غضباً أحياناً
إذا ما رأى العاصفة تهبُّ مقبلةً
فيرميه الناسُ حينذاك بالجنون
فلا يقترب من تيريه فيغين سوى قلة
لا تهابه.

2

رأبئه مرة بعد ذلك -
مضطجعاً على رصيف المرفأ، ومعه صيدُه
كان شعره أبيض، لكنه كان يغني مبتهجاً
مفعماً بالحياة مثلَ صبي.

كان يداعبُ الصبايا حين يصادفهن
ويمزحُ مع الفتيان واحداً واحداً
ثم يلوحُ بقبعته البحرية قبل أن يقفز الى متن مركبه
وينشرَ شراعَه، مبحراً في ضوء الشمس
نحو بيته كعقابٍ هرم.

3

والآن سأروي لكم كل ما سمعت عن تيريه
من أول القصة الى آخرها.
فإذا ما بدت لكم جافةً بعض الشيء أحيانا
فلأنها لا تنقلُ سوى ما قد حدث بالفعل.
الحقّ، انني لم أسمع بالقصة من فم تيريه مباشرة
بل من أصدقائه الأقربين الذين رافقوه حتى النهاية
اولئك الذين واروه الثرى
مغلّقين عينيه في رقدته الأبدية
حين مات وهو يشرفُ على السبعين من عمره.

4

كان طائشاً أيام شبابه لا سلطان لأحد عليه
هجر البيت مبكراً
وخبّر الكثير في الطرق التي سلكها
كأصغر بحار على متن سفينة.
ثم فر هاربا حين وصلت السفينة الى أمستردام
وهناك غلبه الحنينُ
فعاد على ظهر سفينة
لكن ما من أحد عرفه، هو الخروف الضال،
ذاك الذي غاب صبيا ليسرّح ويمرّح على هواه.

5

منتصب القامة، فارغ الطول هبط من القارب
مزهوا بزيه الأنيق
بيد أن والديه كانا قد ماتا منذ زمن بعيد
ولم يعد له أحد من أهله.
غرق تيريه في الحزن يوما او يومين
لكنه سرعان ما ودع أحزانه.

لم يكن يجدُ ما يركنُ إليه على اليابسة
كلا، قال لنفسه، ليس أفضل من أن تكون حرا على متن سفينة
تمخرُ بك عبابَ البحر الهادر.

6

بعد عام سرعان ما تزوج تيريه -
لا بد انه ندم كثيرا، قال الناس،
حين أوثق نفسه بالأغلال.
وهكذا أمضى تحت سقف بيته شتاءً واحداً،
شتاءً طويلاً وحميماً
فيما زجاجُ النوافذ الوضاءُ يشفُّ عن
ستائرٍ قصيرةٍ نظيفةٍ وزهورٍ منسقةٍ
في البيت الصغير المصبوغ بالأحمر.

7

حين ذاب الجليدُ وهبت الرياح المعتدلة
أقلعت سفينةً بتيريه شمالاً.
وفي الخريف حين رفرفت أسرابُ الإوز الرمادية

عاليا محلقة نحو الجنوب
إعتصرت قلبَ البحارِ الهموم.
كان فتيا وقويا كالبحر
قادما من سواحلٍ مغسولةٍ بالشمس -
عالمٌ من الضوء والبهجات وراءه
وأمامه شتاءٌ معتم وكئيب.

8

رست السفينة، فهبط البحارُ الى الساحل
ليفرحوا ويمرحوا في إجازة طويلة.
راقبهم بحسد حين انطلقوا
وهو واقف عند بيته الساكن.
ثم رأى من خلال الستائر البيضاء الناصعة
في الداخل كائنين هما كل ذخره:
كانت زوجته تغزلُ الكتان هادئة
وفي المهد طفلةً صغيرةً متوردة الخدين
تناغي ضاحكة ومبتهجة.

9

قيل إن تيريه صحا

فجأه إلى نفسه.

كان يكد ويُنهك نفسه، لكن لا يتعب أبدا

حين يهدد طفلة في المهد لتنام.

وفي أماسي الآحاد، إذ تعزف الموسيقى ويرقص الناسُ

صاخبين

في أقرب مزرعة من بيته

كان يغني لنفسه أجمل الأشعار

فيما أنا الصغيرة بين ذراعيه

تعبتُ بشعره الكستنائي الكثيف.

10

بطيئةً مرت الحياة حتى اندلعت الحرب

في عام تسع وثمانمئة وألف.

لا يزال الناس يتحدثون عن المصيبة حتى الآن

عن العوز والإنحدار البطيء.

حاصرت الطراداتُ الإنكليزية المرافئَ كلَّها
فعانى الفقراء من المجاعة
نضبت الحبوبُ وشعر حتى الأغنياءُ بالشحة.
لم يعد يكفي المرء أن يملك ساعدين قويين
ما دام الموتُ والمرضُ في كل مكان.

11

إغتم تيريه يوماً او ربما يومين
لكن سرعان ما ودع أحزانه.
تذكر رفيقه القديم الوفي:
البحرَ القويَّ الواسعَ الهادر.
لا يزال الناسُ يروون أسطوره حتى الآن
"ما إن هدأت الرياحُ قليلاً بعضَ الشيء
حتى اندفع تيريه فيغن من أجل الزوجة والطفلة
يشق عبابَ اليم في قاربه المفتوح."

12

إختار أصغر قارب عثر عليه

ليبدأ رحلته الطويلة الى الدانمارك
من دون أشرعة او صارية
إذ بدا له ذلك أكثرَ أماناً.
حدّث تيريه نفسه أنه يمكن توجيهُ القارب
إذا ما عاكست الرياحُ المجرى
حيث يكمن الخطر في شعاب الدانمارك المرجانية
لكن الأسوأ من ذلك هو "رجلُ الحرب الإنكليزي"
مُتربّصاً بعيني النسر اليقظتين.

13

هكذا انطلق، معتمدا على الحظ بايمان راسخ
مترنما شد المجذافين بقوة الى القارب
حيث وصل سالما الى الدانمارك
وابتاع مؤونته الغالية.
يعلم الله كم كانت حمولته متواضعة:
ثلاثة دنان من الشعير لا غير
فقد كان تيريه ينحدر من بلاد فقيرة

لكن على متن قاربه الآن ما يُبقي على الحياة
من أجل الزوجة والطفلة المنتظرتين.

14

ثلاثة أيام بلياليها ظل الرجل القوي الشجاع
يُجذّف مشدودا الى مقعده.

في اليوم الرابع عند الفجر صباحا
أبصر خيط ضباب في الأفق النائي.

لم يكن ذلك سحباً شاردةً غبراء

بل هي جبالٌ وقممٌ وسفوح

عاليا فوق كل الهضاب

رأى الأزرق الواسع

فأدركَ الى أين كان قد وصل.

15

مقتربا من بيته، لم يبق عليه سوى أن يصمد قليلا

ليقطع المسافة الأخيرة القصيرة.

خفق قلبه، لم يعد الآن بعيدا عن بيته

لذلك توجه بالشكر الى الربّ
لكن ما أسرع أن جمدتِ الكلماتُ على شفثيه
حدق طويلا حتى أدرك ما حدث
في الضباب المتلاشي في تلك الساعة
رأى سفينة ترسو في مضيق هسنس
ناشرةً شراعها.

16

إنكشف القاربُ وأطلقت إشارة الإنذار
قطعوا عليه طريقَ الفرار
هب نسيمُ الصباح عليلا
فشق تيريه طريقه هاربا نحو الغرب.
أنزلوا قاربا من جانب في السفينة
فصار يسمعُ غناءَ البحارة.
بقدمين منفرجتين ومرتكزتين على أضلاع القارب
جذف مراناً على كل حياته
حتى راحت أظافره تنزفُ دما.

النورس كان اسمُ الشعبِ الصخرة المرجانية
الى الشرق تماما من هومبورغ - سوند.
صعباً كان التجديفُ هنالك في الريح
إذ لا يعلو الماءُ عن القاع بأكثرَ من قدمين -
زبدٌ أبيضُ يرغو ورذاذٌ يبرقُ فوق الصخرة
حتى في أهدأ أيام البحر.
ولكن حتى حين تمورُ الأمواج
فإنها سرعان ما تتلاشى خلف الصخور المرجانية
بعد لطماتها المتكسرة المكتومة.

إنطلق تيريه بقاربه نحو الساحل
كالسهم يشق غمارَ الزبد والرذاذ.
لكن طاقمَ الزورق ظل يطارده
كانوا خمسة عشرَ رجلاً في أعقابه.

إدّاك صاح تيريه عاليا عبر هدير الموج
متوجها الى الله في ساعة شدته:

"هناك بعيدا في الساحل

تقع زوجتي في منزلنا الراح في البؤس
متلهفة تنتظر مع طفلاتي رغيف الخبز.

19

لكن صراخ الخمسة عشر رجلا طغى على صوته،

حدث ما كان قد حدث في المعارك السابقة:

إصطف الحظ هنا ثانية الى جانب الإنكليز

فارضين الحصار على سواحل النرويج.

حين ارتطم قارب تيريه بالصخور الناتئة

إصطدم الزورق هو الآخر بالجرف.

نادى الضابط بأعلى صوته "قف!"

رافعا بيده مجذافا هوى به فوق هيكل القارب

بضربة مباغته.

20

تحطمت ألواح القارب وارتجت أضلاعه
فتدفق سيلُ الماء غزيراً عبر الثقب
غرق الحملُ الغالي في عمق لا أكثرَ من قدمين
لكن لم يفقد تيريه قوة بأسه
كافح كي لا يُلقى القبض عليه
رمى بنفسه في الماء من طرف القارب
ومضى يغطسُ حيناً، يسبحُ حيناً، يغطسُ، يسبحُ مبتعداً
لكن الزورق أدركه في آخر الأمر
فانتصر السيفُ ورعدُ بنادقهم.

21

إصطادوه وألقوا به في الزورق
حيوا النصرَ باطلاق قذيفة مدفع
وأمام الكوثل انتصبَ الربان مزهوا وفخوراً.
كان فتى في الثامنة عشرة من عمره
والنصرُ على قارب تيريه هو أول أفعاله في الحرب.

صلفاً كان بلا حدود

لم يعرف تيريه ماذا يفعلُ كي يفلتَ من أيديهم
فانهار راکعا على متن سفينتهم، وهو على ما يملك من قوة،
في عينيه دموع، يستعطفهم.

22

قايضهم بالدمع فجازوه ببسماتٍ شامتةٍ
وردوا بالسخرية والهزء على رجائه.
وفيما الريح الشرقية تهب انطلق ابن انكلتره
منتصرا نحو البحر.

صمت تيريه واستسلم للأقدار

مسكونا بالحزن الآن

ومع ذلك لاحظ سجّانوه

أن ثمة ما خطف انتباهه بعيدا

عن الأفق الغائم أمام جبينه.

23

أمضى في السجن سنين طويلة

يُقال إنها بلغت خمسا.

تهدلت خلالها كتفاه واشتعل شعرُ رأسه شيئا

وهو يحلم بموطنه.

أخفى شيئا لم يكشفه لأحد قط

مثل كنز يملكه هو وحده.

ثم جاء العامُ الرابعُ عشرَ وثمانمئةً وألفُ بالسلم

فعاد النرويجيون الأسرى، ومعهم تيريه، الى أرض الآباء

في مركب عسكري سويدي صغير.

24

عائداً الى الوطن هبط على رصيف الساحل

وقد عُيِّن مرشدا بحريا بقرار ملكي

لكن قليلين رأوا في الرجل الأثيب

ذاك البحارَ الشابَ الذي غاب.

في البيتِ وجد غرباء مقيمين ، لذلك راح يتقصى

كلّ أثرٍ عما حلّ بأعزّ الناس اليه:
"الزوجُ هجرهما" ولم يساعدهما أحدٌ
فانتهيا الى قبرٍ مشتركٍ واحدٍ
في مقبرةٍ عامةٍ تملكها الكنيسة للفقراء. --

25

أعوامٌ مرت وهو يقومُ بعمله على أفضل ما يكون
مرشدا السفنَ في تلك الجزيرة النائية.
ما أساء الى أحد قط في حياته
سواء في البر أم في البحر
ومع ذلك كانت عيناه تتقدان غضبا أحيانا
إذا ما رأى العاصفة تهب مقبلة
فيرميه الناس حينذاك بالجنون
فلا يقترب من تيريه فيغن الأقلّة
لا تهابه.

26

ذات مساءٍ مقمرٍ والريحُ تهب على البر

دب النشاط في قمره المرشدين،
كان ثمة يخت إنكليزي جرفته الريح الى الساحل
بعد أن تمزقت أشر عته كلها
يرفع العلم الأحمر على مقدمة الصارية
ويطلق نداءات الإستغاثة.
هبّ زورق من البر للنجدة
وإنطلق ضد الريح العاصفة شيئاً فشيئاً
فيما المرشد يقف على متنه بثبات.

27

بدا الرجل مهيباً بشعره الأبيض يفيض ثقة
كعملاق يمسك بدقة القيادة.
إستجاب اليخت فاستدار صوب اليابسة
وصار الزورق يجره وراءه.
حينذاك تقدم اللورد تتبعه زوجته حاملة طفلتها
ورفع قبعته، قائلاً:
"سأجعلك غنيا بعد فقر"

إن أنقذتَ حياتنا من هذا الموج الهادر.
لكن تيريه رفع يده فجأة عن دفة القيادة.

28

ظل شاحبَ الوجه، على فمه ابتسامةٌ ماكرة
إغتصبها بعد لأي

كان اليختُ الجميل للورد قد جنح

فغاص جانب منه منحدرًا نحو القعر.

"أهجروا السفينة، أسرعوا إلى القارب!

سيدي اللورد، سيدتي إتبعاني!

سوف تتحطم السفينة نفاقًا، هذا أمر واضح

ثمة في الخلف ممر آمن

خط مسيري سوف يقودكم خارج منطقة الخطر".

29

إندفع القاربُ في ضوء البحر الفسفوري الساطع

نحو الساحل بغنائمه الثمينة.

كان المرشدُ يقف فارع الطول قويا

عيناه المخيفتان تتوهجان مضاء
نظر باتجاه السفح الآمن من الريح الى صخرة النورس
الجرداء
والى هيسنيس
ثم فجأة ترك الدفة وتخلى عن الشراع
رافعا بيده مجذافا هوى به بكل ما يملك من غضب
فوق ألواح القارب.

30

تدفق الماء مزبدا الى الداخل، --
وسرت الرعدة عبر الحطام - :
شَحَبَ وجهُ الأم خوفا وقد فأجأها الأمر
فاحتضنت طفلتها بين ذراعيها.
صرخت مرتعبة: "أنا يا طفلي الصغيرة" -
حينذاك حدق الرجلُ ذو اللحية البيضاء اليها مختضا.
أمسك بالمقودِ وراح يجذف باتجاه الجانبِ الآمن من الصخرة،
فطفا القاربُ مستويا في خضم البحر الفظ الهادر

وراح يشق طريقه بين الأمواج المتلاطمة.

31

ثم ارتطم القاربُ بالقاع وغرق، ومع ذلك تنفسوا الصعداء
فقد أفلتوا من قبضة البحر واقتربوا من اليابسة.
عرفوا أنهم بلغوا المياه الضحلة
فخاضوا فيها حتى الركبة.
حينذاك صرخ اللورد: "أنظر،
القاع يמיד تحت أرجلنا وينحدر!"
إبتسم المرشد: "لا تخف!
ها هنا غرق قاربٌ محمل بثلاثة دنان من الشعير
في القاع نفسه الذي يحملنا الآن."

32

غمرت بالرعب وجه اللورد
ذكرى فعلته نصف المنسية.
تذكر الآن فقط ذاك الذي طلب منه الرأفة

راكعا على متن زورقه.

وهنا صرخَ تيريه فيغن: "كل مصيري كان بين يديك،
لكناك فرطتَ به باسم الشرف والمجد،
لحظة واحدة وأكون قد انتقمت منك!"
عندها ركع النبيلُ الإنكليزي على ركبتيه
أمام المرشد النرويجي البسيط.

33

وقف تيريه رافعا المجذاف
منتصبَ القامة، كما في أيام صباه الأولى
عيناه تشعان بقوة أسرة
وشعره يتموج أبيضَ في الريح.
"كنتُ تُبحر متنعما في سفينتك الجبارة
فيما أنا أجذفُ في قاربي الوضيع.
جاهدتُ من أجل أسرتي حتى كدتُ أموت
أما أنت فقد سرقتَ خبزهم، وحين بكيت
سخرت من دموعي المريرة.

34

زوجتك المترفة مشرقة كالربيع

ويداها ناعمتان كالحرير.

أما يدا زوجتي البائسة فقد كانتا خشنتين وقاسيتين

لكنها كانت زوجتي على أي حال.

ذهبيُّ شعراً طفلتك وعيناها زرقاوان

كضيف صغير عند الله.

أما ابنتي فلم تكن ترتدي ما يُمكن أن تزهو به،

كانت، والحق يُقال، ضامرةً وكالحة

مثل كل أطفال الفقراء.

35

أنظر، كانت هذه كلَّ ثروتي في العالم

لم أكن أملك غيرها

إعتبرتها كنزاً لا يقدر بثمن

في حين أنك اعتبرتها سقط متاع بلا قيمة.

لقد أذفت ساعة الإنتقام، فلتحذروا -

حان دورك لتعاني

لتختبر كل سنوات الوحدة الطويلة التي احتملتها،
السنوات التي أحنت كتفي وأشعلت شعري شيبا
ودفنت سعادتي في التراب.

36

قبضَ على الطفلة من يدها، وقد ركبه الشيطان بغتة
وأحاط قويا خصر المرأة بذراعه اليسرى.
"قف في مكانك هناك أيها اللورد،
أيُّ حماقة منك ستكلفك حياة الطفلة والزوجة!"
تأهب البريطاني للقتال من جديد
لكن الخوفَ ثل ذراعيه فأصيبتا بالوهن والعجز
أنفاسه اشتعلت، زاغ منه البصر
وشعره - عاكسا ضوء الفجر
إمتلأ شيبا في ليلة واحدة.

37

وهنا أشرق وجه تيريه فجأة بالرضا و الطمأنينة

فراح صدره يعلو ويهبط باسترخاء وسكينة.
أعاد الطفلة برفق
مقبلاً يدها برقة.
تنفس الصُعداءَ كمن أُطلق سراحه من زنزانه سجن
وبدا صوته هادئاً ونقياً:
"هو ذا تيريه فيغن ذاته ثانية."
ظل دمي يتدفق مسرعاً مثل جدول في تل حتى الآن
فقد كان علي، كان علي أن أفعل شيئاً ما."

38

الأعوامُ الطويلةُ التي أمضيها في غياهبِ السجن
أصابت قلبي بالعطب
مذاك وأنا مثل قشة في مهب الأعلي
أحدقُ إلى هاويةٍ مرعبة.
لكن ذلك كله انتهى الآن، سوينا ما بيننا،
لقد أذنبتَ عن غرارة، أعرفُ ذلك
أعطيئك كل ما أملك - فأخذتَ كل شيء

وهكذا إذا ما رأيتَ أنني قد أسأتُ اليك
فسل الله من منا عانى الظلم حقا
لأنه هو الذي خلقني هكذا على ما أنا عليه."

39

مع الضوء الأول للنهار انتهى الخطر
ورست السفينة بأمان في الميناء.
لم يعد أحد يتحدثُ عما حدث في تلك الليلة
ومع ذلك سرعان ما ذاع اسمُ تيريه بين الناس.
جرفت عاصفة الليل الهوجاء
غيوم الكابوس الغبراء
فانتصب تيريه أكثر من الجميع مذ ذاك اليوم
بقامته التي أحناها الزمنُ ذات مرة
فركع على ظهر السفينة.

40

جاء اللورد، جاءت السيدة
وجاء كثيرون، كثيرون آخرون الى البيت.

صافحوه، ألقوا عليه تحية الوداع
وقدموا له الشكر الجزيل:
لإنقاذهم من العاصفة و الخطر
من البحر الهائج والموت الأكيد.
لكن تيريه مسد بيده شعر الطفلة، قائلاً:
"كلا، من أنقذنا في مأزقنا ذاك
هو هذه الطفلة الصغيرة."

41

إستدار اليختُ متجها نحو مضيق هسنس
رافعا علم النرويج خفاقا. وغربا حيث تمتد اليابسة المغسولة
بالزبد
دوت كتحيةٍ إطلاقه مدفع.
ترقرقت دمعة في عين تيريه
وهو يراقبُ المشهد من مرتفع على الساحل:
"ما أكثرَ ما فقدتُ، ما أكثرَ ما ربحت.
ربما كان وراء ذلك كله حكمة ما

فليكن الشكرُ لله الذي جعلني أدركها."

42

هكذا رأيتُه ذات مرة في مدخل الميناء
مضطجعا على الرصيف، ومعه صيده
كان شعرُه أبيضَ ولكنه كان يغني مبتهجا
مفعما بالحياةٍ مثلَ صبي.
كان يداعبُ الصبايا حين يصادفهن
ويمزحُ مع الفتيان واحدا واحدا
قبل أن يلوحَ بقبعته البحرية ويقفزَ الى متن مركبه
ناشرا شراعه، مبحرا في ضوء الشمس
نحو بيته كعُقاب هرم.

43

في مدفن الكنيسة المحلية شاهدتُ قبرا
في بقعة مهجورة في العراء.
كان غائرا، لم يتعهدهُ أحدٌ بالرعاية

لكن الشاهدة السوداء كانت لا تزال قائمة
وقد نُقش عليها اسمُ تيريه فيغن بالأبيض
وتاريخُ السنة التي دفنوه فيها.
كان يرقد هناك في قبر تحرقه الشمسُ وتسفَعُه الريح
وقد نمت حوله أعشابٌ طويلةٌ جافة
تبرغُ من بينها زهورٌ برية.